الشبهة السابعة

السنة دُوِّنَتْ فى قصور الأمراء ؟!

أعداء السنة ظهروا من قديم ، وشغبوا حولها كثيراً ورددوا من الشبهات ما أملاه عليهم الشيطان ، ليكونوا من أصحاب السعير ، وعلى كثرة ما افتروا على سنة رسول الله ﷺ ، لم يتوسعوا فى الشقاق مثل ما توسع فيه منكرو السنة المعاصرون .

فقد ملأوا صفحات الصحف الجديدة والقديمة صخباً وعويلا وكرروا مراراً أن الحديث النبوى دُوِّن فى قصور الخلفاء والأمراء ، وخضع مدونوها إلي أهواء أولئك الخلفاء والأمراء ، مُلاَّك الدنيا ، الذين كانوا يملكون الرفع والخفض والجاه والسلطان ، والدرهم والدينار ؟

وأسهمت مجلة « روز اليوسف » خلال شهرى مارس وأبريل من هذا العام (١٩٩٩م) بنصيب وافر من نشر هذه الأكاذيب فى أربع مقالات ضافية ، مع شبهات أخرى مما نتعرض له فى هذه المواجهة .

والهدف من هذه الشبهة (السادسة) واضح ، هو تصوير السنة فى صورة أكاذيب وافتراءات على صاحب الرسالة، وأن الأحاديث النبوية المتداولة الآن بين يدى الأمة فى كتب الجوامع والمسانيد والصحاح وغيرها ، لم يقلها النبى ﷺ، ولكنها من اختراع أناس لا خلاق لهم وضعوها من أجل خدمة السلاطين والحكام، واشتروا بها ثمنا قليلا ؟! .

هذا هو هدفهم . وكفى بذلك للسنة ضياعا ؟

تفنيد هذه الشبهة ونقضها :

لن نطيل الوقوف أمام هذه الشبهة ، لأنها من أكذب الأكاذيب ، ونكتفى فى الرد عليها بما يأتى :

أولاً : أن من له إلمام بالحديث النبوى وأغراضه التى قيل من أجلها ، لن يعثر على حديث فيه محاباة للأمراء والحكام والسلاطين ، بل سيجد فيها أحاديث تشدد النكير على تصرفات ولاة الأمور مهما علا سلطانهم فى الأرض.

فهل لو كانت السنة دونت فى قصور السلاطين تبعا لأهوائهم كنا نجد فيها هذا الحديث :

« أفضل الجهاد كلمة ، حق عند سلطان جائر» رواه أبو داود وابن ماجة عن أبى سعيد الخدرى مرفوعا . ورواه غير أبى داود .

فمن هو السلطان الذى يسمح بتدوين هذا الحديث وأمثاله فى قصره ، ويمنح واضعه العطايا ؟ أليس فى هذا الحديث تحريض وترغيب فى التصدى للسلاطين والإنكار عليهم ؟ وأنت ترى أن هذا الحديث يجعل مقاومة الظلمة من السلاطين أعلى مرتبة من مراتب الجهاد .

وهل لو كانت السنة قد دونت فى قصور السلاطين تبعا لأهوائهم كنا نجد فيها هذا الحديث :

« من بايع أميراً عن غير مشورة المسلمين فلا بيعة له ولا للذى بايعه» رواه الإمام أحمد .

إن هذا الحديث يسد منافذ كثيرة يمكن من خلالها أن يستبد الحكام بأمور المسلمين ، فمن هو السلطان الذى يسمح بوضع هذا الحديث فى قصره ؟ ويمنح العطايا الجزيلة لمن يلف حبل المشنقة حول عنقه ؟

إن هذين الحديثين ، وغيرهما كثير ، كافيان فى تبرئة السنة من هذه الشبهة القاصمة .

ثانيًا : إن علماء الحديث أنفسهم كانوا لا يقبلون حديثا فى سنده رجل عُرف بالتردد على السلاطين أو قبول هدايا منهم ، أو كانت له خطوة عندهم وهذا منهم احتياط عظيم لحماية السنة من الدخيل والعليل والمكذوب .

ثم إنه تطبيق عملى لحديث يروى فى هذا المعنى : « شرار العلماء الذين يغشون الأمراء ، وخيار الأمراء الذين يغشون العلماء ».

فكيف يصح مع هذا اتهام علماء الحديث بأنهم كتبوها فى قصور الأمراء والسلاطين ، استجابة لأهوائهم وشهواتهم .

إن علماء الأمة – بوجه عام – كانت علاقاتهم بالحكام والسلاطين قلقة ، وكان العلماء يترفعون عن التردد على قصور الحكم وبلاط الرياسات ، سواء كانوا فقهاء أو محدثين ، وما كانوا يتهاونون فى الثورة والاحتجاج على الباطل وإن اعتصم الباطل بالعروش والصولجانات الرهيبة ونكتفى بذكر واقعة واحدة هنا توخيا للإيجاز :

دخل الإمام الزهرى المحدث على الوليد بن عبد الملك فقال له الوليد :

ما حديث يحدثنا به أهل الشام ؟ قال الزهرى : وما هو يا أمير المؤمنين ؟

قال : يحدثوننا أن الله إذا استرعى عبداً رعية – أي جعله حاكما – كتب له الحسنات ، ولم يكتب عليه السيئات .

قال الزهرى : باطل يا أمير المؤمنين ، أنبى خليفة أكرم على الله ، أم خليفة غير نبى ؟

قال الوليد : بل نبى خليفة أكرم علي الله من خليفة غير نبى .

قال الزهرى : فإن الله تعالى يقول لنبيه داود عليه السلام :

﴿ يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ ﴾ [ص: ٢٦]

فهذا وعيد يا أمير المؤمنين لنبى خليفة ، فما ظنك بخليفة غير نبى .

قال الوليد : إن الناس ليغووننا عن ديننا . [العقد الفريد : جـ١ ص ٦٠] .

انظر شجاعة الزهرى وجرأته على دحر الباطل ونصرة الحق . وهذه الواقعة جرت أحداثها فى قصر الوليد بن عبد الملك حاكم زمانه ، والزهرى من أعلام علماء الحديث وموقفه هذا هو المنهج الذى سار عليه رجال الحديث الأتقياء البررة ، فأين الزور الذى يروج له منكرو السنة فى زماننا هذا من هذا الحق ، الذى زين الله به خدام سنة رسوله الكريم .

ومن شاء المزيد من هذه «البطولات» فليقرأ سيرة الأئمة الأربعة ، أبى حنيفة ومالك والشافعى وأحمد بن حنبل ، ليرى مواقفهم الناصعة أمام حكام عصورهم ، وتشددهم فى إقرار الحق ودفع الباطل ، والاعتزاز بكرامة الإيمان والعلم .

● فأبو حنيفة تؤدى به الجفوة بينه وبين الحكام إلى الزج فى غياهب السجون المظلمة الظالمة ، ويلقى منيته وهو مسجون كما فى بعض الروايات .

● ومالك لما خالف هوى حكام عصره آذوه وخلعوا ذراعه وأصابوه بالأمراض .

● والشافعى يضيق به الأمراء ذرعا ويطاردونه من قطر إلى قطر ، دون أن ينيلهم ما يرجون .

● وأحمد يقف كالطود العظيم شامخا بإيمانه وعلمه ويحل به العذاب الظالم حتى يمفد وعيه ، ولا ينحرف قيد أنملة نحو الباطل الذي كانوا يراودونه عليه .

هذه قبسات مضيئة سجلها التاريخ بأحرف من نور للفقهاء والمحدثين ، الذين يتطاول عليهم الآن شرذمة لا خلاق لهم من بنى جلدتنا ، ويتكلمون بلساننا ، يلبسون للناس جلود الضأن من اللين ، وقلوبهم قلوب الذئاب، إنهم جنود إبليس وإن صلوا وصاموا وزعموا أنهم مسلمون . والله لهم بالمرصاد ، وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون .

* * *